كتاب

أسرار البلاغة

تأليف الشيخ الإمام أبي بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي

تغمّده الله بغفرانه

المتوفى سنة ٤٧١ أو سنة ٤٧٤ هـ

قرأه وعلّق عليه

أبو فهر

محمود محمد شاكر

مِنَ النَّاسِ مَن لَفظُهُ لؤلؤٌ ... يُبادِرُهُ اللَّقطُ إذ يُلفَظ

وبعضُهُمُ قَولُهُ كالحَصا ... يُقالُ فيُلغى ولا يُحفَظ

شيخ المعرة

الناشر دار المدني بجدة

تليفون : ٦٧٠٠٧٨٨ فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وأَعِنْ

الحمدُ للهِ وحدَهُ لاشريكَ لهُ ، حَمداً توجبُه سوابغُ نِعَمِه ، وَلَنِعمةٌ واحدةٌ لا يُوَفِّيها بعضَ حقِّها حَمْدُ الحامدين ولا شكرُ الشاكرين آناءَ الليلِ وأطْرافَ النهارِ ، دَهْرَ الداهِرين وأبَدَ الآبدين ، وصلّى اللهُ على نبيِّنا محمّدٍ رسولِ اللهِ المبلِّغ عن ربّه ، بلَّغَ الرسَالةَ وأدَّى الأمانة ، فأخرجنا بها من الظُّلُمات إلى النُّورِ ، وأنقذنا بها من نارِ جهنَّم ، ما اتَّبعْنا هَدْىَ القرآنِ العظيم ، ولزمنا سُنَّة رسوله الأمين ، صلّى الله علَيه وسلم تسليماً كثيراً ، وصلَّى الله على أَبَوَيْه الرسولين الكريمين إبراهيمَ وإسماعيلَ ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، « إنَّ اللهَ ومَلائِكتَهُ يُصلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يٰأيُّهاَ الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تَسْلِيماً » ، أمْرٌ من الله ربِّنا لايزيغُ عنهُ إلاّ هالكٌ .

* * *

وبعدُ ، فقد فرغتُ آنفًا من قراءةِ « كتاب دلائل الإعجاز » للإمام المتفرِّدِ عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ، وهذا كتابه الثانى : « كتابُ أسْرارِ البلاغة » ، قرأتُه أيضًا وعلّقتُ عليه ، فهما أصْلانِ جَليلان ، أسَّسَا قواعدَ النّظَر فى علم بلاغة الألسنة عامّةً ، وبلاغة اللسان العربىّ المبينِ خاصةً . ثُمَّ خلفَ من بعد عبدالقاهر أيِمَّةٌ من الخَلَف اتّبعُوه وزادُوا عليهِ ، وأرادُوا أن يُقعِّدوا قواعد لعلم البلاغة ، فشقُّوا لأنفُسِهم فى زمانهم ، ثُمَّ لَنا من بعدهم ، طريقًا جديدًا يُلاقى طريقَهُ من وجهٍ ، ويُخالفُه من وجهٍ آخر . كان ذلك اجتهاداً منْهُم أحسنُوا فيه غايةَ الإحسان ، وأساءوا بعضَ الإساءة ،

ولكنْ ظَلّ عبدالقاهر عندهمْ جميعًا إمامًا مجتهدًا مبرّزاً سَبَقَ إلى ما لم يَخُطُّه أحدٌ قبلَه ، واستدركُوا عليه بعضَ ما ظنُّوا أنّه قد أغفلَه فى هذين الكتابين الجليلين . بَيْدَ أنّ ما كتبه عبدالقاهر سوف يبقى بإذن اللهِ نِبْراسًا وسِرَاجًا مُنيرًا لكل مَنْ يَسَّر له الله الإخلاصَ والهمَّةَ والسَّعْى المُبْصِرَ فى طلبِ الكشف عن بلاغة الألسنة البشرية عامةً ، واللسانِ العربىّ المُبين خاصةً ، وسيبقَى بمشيئة الله ما كتبهُ الأيِمّةُ من الخَلَف الذين جاءوا من بعده ، دَليلاً هاديًا يمهِّد الطريقَ لمن أرادَ من أهلِ زمننا ، ومن يجىءُ بعدنا ، أنْ يهجُرَ الثرثرة الفاشية فى زماننا وَزمَانهم ، مُهاجرًا إلى الصِّدقِ المؤدِّى إلى بلوغ الحقّ ، حتى تَسْتَتِبَّ الخُطى على الطريق المستقيم . وكُلُّ من دَبَّ على الدَّرْبِ وَصَل ، بتوفيقٍ من الله وعَوْنٍ ، والجِدُّ خَليقَةٌ تُفْضِى إلى مُستقَرِّ السعادة فى الدنيا والآخرة .

* * *

كان الفضْلُ الأوّلُ والأكبر للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، فهو الذى وفَّقه الله فنشر « كتاب أسرارِ البلاغة » فى زَماننا ، فطبع النسخة الأولى منه سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) بمطبعة الترقّى ، ثم طبع الطبعة الثانية منه سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) فى «مطبعة المنار» التى كان قد أنشأها سنة ١٣٢١هـ ، ثم أعاد طبعها مرَّاتٍ بعد ذلك . ثم كان له الفضل الأول أيضًا فى نشر الكتاب الثانى «كتاب دلائل الإعجاز» سنة ١٣٢١هـ وهى الطبعة التى اعتمدت إثبات أرقامها فى نشرى «كتابَ دلائل الإعجاز» كما ذكرتُ ذلك فى مقدّمته .

وقد قصّ الشيخ رشيد قِصَّة «كتاب أسرار البلاغة» فى مقدمة الطبعة الثانية التى وقفتُ عليها ، وسأنشرها كاملة فى آخر هذه المقدمة . وذكر أنّه طلب مخطوطة « كتاب أسرار البلاغة » من صديقه عبدالقادر المغربىّ ، وكانت فى أحدِ بيوت العلم فى طرابلس الشام . وقال إنه علم أن نسخةً

أخرى من الكتاب فى إحدى دُور الكتب السلطانية فى دار السلطنة السنية ، فندب بعضَ طلاَّب العلم لمقابلة نسخته الشامية على هذه النسخة. ونحن لا نعلم شيئاً عن هذه النسخة الشامية ، ولا نعرف تاريخ كتابتها ؛ ولا نعرف أيضًا شيئًا عن النسخة التى كانت فى دار السلطنة العثمانية ، وإن كنت أظنُّ أنها هى النسخة التى سأشير إليها فيما بعدُ ، والله أعلم .

وقد قرأتُ «كتاب أسرار البلاغة» فى صَدْر شبابى ، فى الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ ، قرأته مرتين ، ولكن لم يشغلنى يومئذٍ أمرُ المخطوطات التى اعتمد عليها الشيخ رحمه الله ، ومضت سنوات طوالٌ بعد ذلك ، ثم عُدْت إليه فقرأتُه بعدَ أن استتبَّ لِىَ الطريقُ ، وعرفتُ مالم أكن أعرفُه ، فشغلنى أمرُ المخطوطات ، فتقصَّيتُ أمرَ مخطوطاتِه ، حتى عرفتُ أنّ فى مكتبة خسرو باشا بدار الخلافة فى القسطنطينيّة ، نسخةً عتيقةً ، كان الفراغ من كتابتها سنه ٦٦٠هـ بدمشق المحروسة. فهى إذن نسخة عتيقة ، بينها وبين مؤلفها عبدالقاهر ، نحوٌ من مئة وتسع وثمانين سنة ، ولكن ليس فيها نَصٌّ على أنه نقلها عن نسخة المؤلف ، أو عن نسخة بعدها نسخها ناسخٌ عن نسخة المؤلف . دلَّنى على هذه النسخة صديقى الأستاذ رشاد عبدالمطلب ، وتفضَّل علىَّ رحمه الله بصورة من هذه المخطوطة فى سنة ١٩٥٣م أو قبلها فيما أظنّ.

وبعد قليل ، فى سنة ١٩٥٤م . وقفت على نسخة مطبوعة من «أسرار البلاغة» ، نشرها المستشرق « ريتر » ، اعتمد فيها على هذه النسخة نفسها ، مع ثلاث نسخ أُخَر ، كانت إحداها فى مكتبة فيض الله ، تمَّت كتابتها سنة ٩٤٧هـ ، والأخرى فى المكتبة الحميدية ، تمت كتابتها سنة ٩٤٣هـ ، والثالثة نسخة فى مكتبة مُراد مُلاً غير مؤرخة ، وذكر أنَّ هذه النسخ الثلاث تكاد تتفق فى قراءتها مطابقةً للنسخة الأولى المكتوبة سنة ٦٦٠هـ ، ولم يجد دليلاً قاطعًا على أنها منقولة منها . ثم استعان أيضًا بالنسخة التى طبعها الشيخ رشيد رضا رحمه الله .

ولما قرأت النسخة التى طبعها « ريتر » ، وذكر فيها فُروق النسخ ، وجدت أن هذه النسخ الثلاث التى استعان بها ، فى قراءة النسخة العتيقة المكتوبة سنة ٦٦٠هـ ، إنما هى نُسَخٌ لا قيمة لها تذكر . وبقيت النسخة العتيقة ونسخة الشيخ رشيد رضا ، هُما أفضلَ ما بأيدينا من « كتاب أسرار البلاغة» .

* * *

ولمّا كانت عندى فى ذلك الوقت نسخةٌ من «كتاب دلائل الإعجاز» ، وهى نسخةُ مكتبة «حسين جلبى» بتركية ، تَمّت كتابتها فى أواسط شهر ربيع الأوّل سنةَ ثمان وستين وخمسمئة . (٥٦٨هـ) ، أى بعد وفاةِ عبدالقاهر بنحو سبع وتسعين سنة ، وتبيّن لى أنّها منقولة من خطّ عبدالقاهر نفسه ، وعلى هوامشها تعليقاتٌ بخط كاتبها ، تبيّنتُ فيما بعدُ أنها تعليقات عبدالقاهر نفسه على نسخته (انظر مقدمة «دلائل الإعجاز » ص : ز ، ح) ، ظللتُ أُؤمّل فى الحين بعد الحين ، أن أقِف على نسخة من « كتاب أسرار البلاغة » تُماثلها فى نَفَاستها ، وفى قرب عهدها من وفاة عبدالقاهر ، وتمنَّيت أن تكون منقولةً من خط عبدالقاهر ، وعليها تعليقاته . ومضى الزمن الطويل فى الأمانّى ، وفى البحث والسؤال عن مثل هذه النسخة ، حتى عزمت فى سنة ١٤٠٣هـ(سنة ١٩٨٣م) على طبع «كتاب دلائل الإعجاز» ، فلما فرغتُ منه ، أكثرتُ السؤالَ والبحثَ عن نسخة عتيقة من «كتاب أسرار البلاغة» ، فلم أجد لها ذكراً فى فهارس المخطوطات ، ولا عند أحدٍ من أهل المعرفة الوثيقة بالمخطوطات ، فلما يئست أن أجدها ، عزمت على الاعتماد على النسخة الشامية العتيقة المكتوبة فى سنة ٦٦٠هـ ، وعلى نسخة الشيخ رشيد رحمه الله المطبوعة سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) ، وعلى نسخة « ريتر » المطبوعة سنة ١٩٥٤م .

* * *

وهذه النسخة العتيقة المحفوظة الآن بمكتبة خسرو باشا بالقسطنطينية تحت رقم : ٦٥٤، فرغ كاتبها منها ، كما ذكر فى آخرها : «يوم الثلاثاء ، بعد العصر ، السابع عشر من جمادى الآخرة ، من سنة ستين وستمئة ، بجبل الصالحيّة من دمشق المحروسة » ، وعدد أوراقها ١٤٥ ورقة ، ورقمت أنا صفحاتها من ١-٢٨٩ صفحة. وأثبتُّ على هامش هذه المطبوعة أرقام الصفحات كما قيَّدتها فى نسختى .

وقد كُتِب فى رأس الورقة الثانية ، بخط سقيم : « ناقص كُراس » وفوقَه بيانٌ بخطٍّ فارسىّ جميل : «من خطّ الخفاجى ، شارح الشفاء العياضى ، وشارح البيضاوى» ، وأنا أظنُّ ظنًّا أنه مِن خطّ بعض تلامذة الشهاب الخفاجى ، ومعنى هذا أن هذه النسخة قد كانت من كتب الشهاب الخفاجىّ ، وكانت له مكتبةٌ عظيمة ، وأظنّ ظنًّا أقرب إلى الترجيح أنها آلت بعد وفاة الشهاب ، إلى تلميذه الذى لازمه منذ سنة ١٠٥٠هـ ، لما دخل البغدادى مصر ، إلى أن مات الشهاب سنة ١٠٦٩هـ . وقد تملك البغدادى أكثر كتب الشهاب ، كما ذكرت ذلك فى هامش ص ٤٠ ، تعليق : ١

والنقص الواقع فى هذه النسخة ، هو نقص الكراسة الثانية ، وعدد أوراق الكراسة عشرون ورقة . ويبدأ هذا النقص ، كما أشرت إليه فى تعليقى ، من ص : ٥٩ ، تعليق : ٢ - إلى ص : ١١٢ ، تعليق : ٣ . ومن أجل هذا النقص ، فيما أظنُّ ، لم يقرأها الشهاب الخفاجى ولا البغدادى ، ولا علَّقا عليها ، بل الذى علَّق عليها فى مواضع قليلة ، هو الذى كتب بخطه الفارسى : «من خطّ الخفاجى ....» ، كما أشرت إليه آنفًا. ويُتمِّم نقص هذه الكراسة ، ما فى نسخة الشيخ رشيد ، ونسخة ريتر عن نسخه الثلاث الأُخَر .

* * *

أمّا النسخة المطبوعة من «كتاب أسرار البلاغة» (الطبعة الثانية كما ذكرت آنفاً) ، والتى نشرها الشيخ رشيد رضا رحمه الله ، فإنه أشارَ فى صفحة مستقلة بعد مقدمته ، تحت عنوان : (تنبيهات لقرَّاءِ الطبعة الثانية) إلى أنّه أدرج فيها تصحيح الشيخ محمد عبده عن قراءة الكتاب ، مع الاستعانة بإمام اللغة فى عصره الشيخ محمد محمود الشنقيطى . وقد أوقع فى قلبى الرِّيبة من هذه التصحيحات ، ما أعلمُه من تسرُّع الشيخ عبده وطُغْيانه فى التصحيح بغير دليل ، اعتمادًا على ذكائه ، وحُبِّه الظُّهورَ على أقرانِه . ولكن سكَّنَ من ريبتى استعانة رشيد رضا بالشيخ الشنقيطىِّ ، لما أعرفه عنه من التثبُّتِ ، وحُسْنِ بَصَرِه بلغة القوم فى عصورهم المختلفة. ولمَّا قابلتها بالمخطوطة العتيقة المكتوبة سنة ٦٦٠ ، لم أجد اختلافًا كثيراً يقدحُ فى هذه المطبوعة .

وأمَّا مطبوعة المستشرق «ريتر» ، فقد رأيتُ الرجلَ قد بذلَ غاية جُهْدِ مستشرقٍ يتلَمَّس طريقَهُ فى هذه اللغة ، ولكنه أثقلها بفروق النسخ المخطوطة التى ذكرتُها آنفًا بلا فائدة تُذكر ، مع ضعف النسخ المخطوطة الثلاث ، كما ذكرت.

وأثقلها أيضًا بمخالفته عادة المستشرقين فى طبع الكتب العربية ، بأن اتَّبع طريق ضعاف « المحققين » المُحْدَثين فى زماننا ، بالاستكثار من ذكر مراجع كثيرة لأبيات الشعر التى استشهد بها عبدالقاهر ، فى كتبٍ ألَّفها البلاغيُّون الذين جاءوا من بعده ، لأنَّهم لم يأخذوا هذه الشواهد إلا من كتاب عبدالقاهر . وعندى أن كتابَ عبدالقاهر ، مادام هو الأصل ، ينبغى أن يخلُوَ من ذكر هذه المراجع المتأخِّرة ، ويَبْقى هو المرجعَ والأَصلَ لما فى هذه الكتب التى جاءتْ بعده .

وأيضًا فإنه التزم فى أكثر أبيات الشعر المفردةِ فى كتاب عبدالقاهر ، أن يذكر القصيدة التى أُخِذَ منها البيتُ ، وفى مَنْ قِيلت القصيدة ، وثرثرةً

بعدَ ذلك كثيرة ، لايستفيد منها قارئُ هذا الكتاب فائدةً تُذكر ، فاتَّبع «ريتر» أيضًا طريقَ ضعاف «المحققين» منَّا ، الذين يتكثَّرون بمالا ينفع الكتابَ ، ولا يهدِى القارئَ إلى شئٍ ينتفع به فى قراءة ما بين يديه من الكتاب.

ومع ذلك ، فجهدُ « ريتر » جهدٌ مشكورٌ فى نشر هذا الكتاب الجليل ، مع ما فى طبعته من عيوب أُخَر ، أشرتُ إليها أحيانًا فى تعليقى على الكتاب .

* * *

وكنت قد عزمتُ على أن أنشر مقدِّمَة «ريتر» التى كتبها ، فى مقدّمتى هذه ، فالتمستُ من صديقى الدكتور عبدالمنعم تَلِّيمة ترجمتها ، ففعل ذلك متفضِّلاً علىَّ ، ولكنه قال لى : «لا تَفْعل ، فإنها لا تضيف شيئًا جديدًا ينتفع به القارىء العربىُّ» ، وصَدَق ، فشكرتُه واتَّبعتُ نصيحتَه ، وذهبَ جُهدُه فى الترجمة هَدَرًا .

أمّا مقدِّمة الشيخ رشيد رضا لمطبوعته النفيسة ، والذى كان له فضلُ السبق إلى نشرها ، فسأثبتها لك ، قال رحمه الله ، بعد الثناء على الله والصلاة على نبيّه . وهذا نصُّها :(١)

* * *

الإنسان يمتاز بالعلم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل فى حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهو تأدية المعانى التى تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير . وفى صورتها وأجراسِ كَلِمِها بعذوبة النطق ، وسهولة اللفظ والإلقاء ، والخِفَّة على

(١) للشيخ رشيد تعليقة واحدة ذكرت اسمه بعدها ، أمّا باقى التعليقات فهى لكاتب هذه المقدمة .

السمع . وإن للغةِ العربية من هذه المميزات الميزانَ الراجح ، والجوادَ القارح ، يعرف ذلك من أخَذَها بحَق ، وجرى فيها على عِرْقٍ ، فكان من مفرداتها على علم ، وضربَ فى أساليبها بسَهْم . ومن آية ذلك لغير العارف ، أنَّ أولئك الشراذم والأوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم التى كان للغاتها فى العلوم قَدَمٌ ، ولم يحملوهم عليها بالإلزام ، ولا بالتعليم العام . وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعلت على الفارسية العَذْبة فى مَهْدها وموطنها ، وآمتد شُعاعها إلى الأندلس فى غربى أوربة بعد ماطاف ساحل أفريقية الشمالى ، وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك فى زمن قريب لم يعرف فى التاريخ مثلُه للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم ، وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب.

كانت لغة أميين وثنيّين جاهليِّين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظهر ، وتجلّى لها العلم فكانت له خير مَجْلَى . وصارت بذلك لغةَ الدين والشريعة ، وعلومِ العقل والطبيعة ، ولكن عَدَتْ على أهلها عَوادٍ كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوِّم من مقوِّمات الأمم الحية . ومن تلك المقومات الحقيقيةِ اللغةُ ، فقد فسدت ملكتها فى الألسنة ، والتوى طريق تعليمها فى المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس .

ظهر ضعف اللغة فى القرن الخامس ، وكانت فى ريعان شبابها ، وأَوْج عزّها وشرفها ، وكان أوّلَ مرض ألمَّ بها الوقوفُ عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، والانصراف عن معانى الأساليب ، ومغازى التركيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والكناية فيه . وهذا ما بعث عزيمة الشيخ عبدالقاهر الجرجانى ، إمام علوم اللغة فى عصره ، إلى تدوين علم البلاغة ، ووضع

قوانين للمعانى والبيان ، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ فى الإعراب . فوضع هذا الكتاب فى البيان ، ومن فاتحته يتنسَّم القارىءُ أن دولة الألفاظ كانت قد تحكَّمت فى عصره ، واستبدَّت على المعانى ، وأنه يحاول بكتابه تأييد المعانى ونصرها ، وتعزيز جانبها وشدّ أَسْرِها .

كتب قبل عبدالقاهر فى مسائل من البيان بعض البلغاء ، كالجاحظ وابن دُرَيْد وقُدامة الكاتب ، ولكنهم لم يبلغوا فيما بَنوهُ أن جعلوه فناً مرفوعَ القواعد مفتَّحَ الأبواب ، كما فعل عبدالقاهر من بعدهم ، فهو واضع علم البلاغة كما صرح به بعض علمائها ، وإن لم يذكر له هذه المَنْقبَة المؤرِّخون الذين رأينا ترجمته فى كتبهم ، حتى إن ابن خلدون الذى تصدَّى دون القوم للإلمام بتاريخ الفنون أهمل ذكره ، وزعم أن الذى هذب الفن بعد أولئك الذين كتبوا فى مسائل متفرقة منه هو السكاكى ، وماكان السكاكى إلاّ عِيالاً على عبدالقاهر ، تَلا تِلْوَه ، وأخذ عنه ، مع المخالفة فى شيء من الترتيب والتبويب ، ولكنه لم يسلم من التكلف فى بعض عبارته ، والتعقيد فى بعض منازعه ، فإذا جاز لنا أن نقول : إنه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، وبما حرَّرَه من الحدود والرسوم ، فإننا لا ننسى من فضل المتقدم سلامةَ عبارته ، وصفاءَ ديباجته ، وغَوْصَه على أسرار الكلام ، ووضع دُرَرِها فى أبدع نظام .

كان السكاكى وسطًا بين عبدالقاهر الذى جمع فى البلاغة بين العلم والعمل وأضرابه من البلغاء العاملين ،[1] وبين المتكلفين من المتأخرين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية ، وفسروا اصطلاحاته كما يفسرون

---

(١) « السكاكى » : هو « سراجُ الدين ، أبويعقوب ، يوسف بن أبى بكر بن محمد بن على السكاكُى الخُوارَزْمّى » ، [٥٥٤-٦٢٦هـ] . ألف كتابه « مفتاح العلوم » ، وهو مطبوع ، جمع فيه سبعة علوم ، ثلاثةٌ منها فى علم البلاغة . ولخَّص كلامه فيه العلامة الخطيب القزوينّى . « محمد ابن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد العِجْلىّ ، أبوالمعالى جلال الدين قاضى القضاة الشافعى » ، [٦٦٦ - ٧٣٩هـ] ، وسمى تلخيصه : «تلخيص المفتاح » ، وهو مطبوع .

المفردات اللغوية ، ثم تنافسوا فى الاختصار والإيجاز ، حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعمَّيات والألغاز ، فضاعت حدوده بتلك الحدود ، ودَرست رُسومه بهاتيك الرسوم. وكان من أثر فساد ذوق اللغة اختيارُ هذه الكتب التى ملكت العُجْمَة عليها أمْرَها ، على الكتب التى تهديك إلى العلم الصحيح بمعانيها ، وتُهْدِى إليك الذوقَ السليمَ بأساليبها ومناحيها ، فكادت كتب عبدالقاهر تُمْحَى وتُنْسَخ ، وصارت « حواشى السَّعد » تطبع وتنسخ ،[1] وهذا هو حظ العلم النافع إذا أُلْقِىَ إلى الأمة فى طور التدَلِّى والضعف ، فمثل عبدالقاهر فى أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن خلدون فى مقدِّمته ، والسلطان سليمان العثمانى فى قوانينه .

رُبَّ غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض أَلَمَّ بها ، حتى إذا نقهت أو أَبِلَّت اشتهته وطلبته . وهذا هو مثلنا أمس واليوم ، فقد كناَّ متفقين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين ، كما يختار المريض الغذاءَ الضارَّ ، فظهر فينا هُدَاة مرشدون يسعون فى إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا . ويَدُلُّوننا على العلم الحى الذى تَفَجَّرَ من ينابيع النفوس الحية ، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التى سماها الجهل علمًا .

ولما هاجرت إلى مصر فى سنة ١٣١٥ لإنشاء (المنار) الإسلامى ، ألفيت إمام النهضة الإسلامية الحديثة الأستاذ الحكيم الشيخ محمداً عبده رئيسَ جمعية إحياء العلوم العربية ومفتى الديار المصرية اليوم ، مشتغلاً فى بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الإعجاز ، للإمام عبدالقاهر الجرجانى . وقد استحضر نُسَخه من المدينة المنورة ومن بغداد ليُقابلها على النسخة التى عنده ، فسألته عن كتاب «أسرار البلاغة» للإمام المذكور فقال : إنه لايوجد فى هذه الديار .

---

(١) « السعد » هو : « سعد الدين التفتازانىّ » ، « مسعود بن عمر بن عبدالله » [٧١٢ – ٧٩١هـ] ، انتهت إليه معرفة علوم البلاغة فى المشرق . وله حاشيتان على «تلخيص المفتاح» للخطيب القزوينى » ، « المطوّل » و« المختصر » ، وكلاهما مطبوع .

فأخبرته بأن فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام نسخة منه ، فحثنى على استحضارها وطبعها . فطلبتها من صديقى الحميم العالم الأديب عبدالقادر أفندى المغربى ، وهى مما تركه له والده ، فلبَّى الطلب . وعَلِمنا أن نسخة أخرى من الكتاب فى إحدى دور الكتب السلطانية فى دار السلطنة السنية ، فَنَدبْنَا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة . فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة شرعنا فى طبعها ، ووضعنا فى ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة ، وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير . وأشرنا إلى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كونُ عبدالقاهر هو واضع الفن ومؤسسه . فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجلُّهم قدرًا ، وأرفعهم ذكراً ، أمير المؤمنين ، مُحْيِى علوم اللغة والدين ، السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب كتاب «الطراز ، فى علوم حقائق الإعجاز» ،[1] فقد قال فى فاتحة كتابه هذا ، وهو من أحسن ما كتب فى البلاغة بعد القاهر ، ما نصُّه :

« وأوَّل من أسَّس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتَّبَ أفانينه ، الشيخُ العالم النِّحرير عَلَمُ المحققين عبدالقاهر الجرجانى ، فلقد فكّ قيد الغرائب بالتقييد ، وهدّ من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكمامها ، وفتق أزرارَه بعد استغلاقها واستبهامها ، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء ، وجعل نصيبه من ثوابه أوفرَ النصيب والأجزاء ، وله من المصنفات فيه كتابان ، أحدهما لقبه «بدلائل الإعجاز» والآخر لقبه «بأسرار البلاغة» ، ولم أقف على شىء منهما ، مع شغفى بحبهما وشدة إعجابى بهما . إلا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منهما » .

---

(١) من أكابر أيمة الزيدية باليمن ومن أكابر علمائه (٦٩٦-٧٤٥هـ) .

وأمّا مكانة هذا الكتاب وبيان مايمتاز به على كتب البيان ، فحسبى من بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسئلتين نافعتين :

إحداهما : أن العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك ، كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة ، فإن كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانونًا كليًا يرشد إليها ، فهو القاعدة ، وإن كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم ، فهو المثل .

والثانية : أن القاعدة الكلية هى صورة إجمالية للمعلومات الجزئية ، والأمثلةُ والشواهد صورٌ تفصيلية لها .

والتعليم النافع إنما يكون بقَرْن الصُّوَر المفصلة بالصورة المجملة ، إذ بالتفصيل تعرف المسائل ، وبالإجمال تحفظ فى العقل . وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذى يثبت به العلم ، وهى طريقة عبدالقاهر فى كتابه هذا وكتاب « دلائل الإعجاز » . على أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى كله من آيات البلاغة ، فهو يعطيك علمها بمعانيه ، وعملها بمبانيه ، وبهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع ما بين أيدينا من كتب الفن ، لأنها إنما تقتصر على سَرْد القواعد والأحكام بعبارات اصطلاحية ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية ، ولا تذكر من الشواهد والأمثلة إلا القليل النادر ، الذى أدلى به السابق إلى اللاحق والأوَّل إلى الآخر .

لهذا بادر الأستاذ الإمام ، مفتى الديار المصرية فى هذه الأعوام ، إلى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عَقِيب شروعنا فى طبعه ، فأقبل على حضور درسه مع أذكياء الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأسْتاذين ،[1] بعد حضور

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدى بك مدرس البلاغة وآداب اللغة العربية فى المدارس العليا : دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعى ، والجامعة المصرية (رشيد رضا) .

الدرس الأول : «إننا قد اكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان» .

وقد ظهر للأستاذ فى غضون التدريس والمطالعة أغلاطٌ فى الكتاب ، بعضها من الطبع ، وبعضها من تحريف النساخ فى الأصل ، وأغلاط أخرى فى التعليقات ، فأحصيناها كلها من نسخته ، ووضعنا لها جدولا فى آخر الكتاب إتماما للفائدة .

ومما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هى من وضعنا ، فإن المصنف رحمه الله تعالى كان يكتفى فى كثير منها بكلمة (فصل)

ونختم هذه المقدِّمة بملخَّص ترجمة المصنِّف رحمه الله تعالى فنقول :

اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ، ولقَّبوه بالإمام واشتُهِرَ بالنحوىّ ، من قبل أن يَضَعَ علم البلاغة . على أنه كان متكلّما وفقيهًا أيضًا .

قال الحافظ الذهبى فى تاريخه «دول الإسلام» : «وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة مات إمام النحاة أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجانى صاحب التصانيف» .[1]

وقال تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى :[2] «عبدالقاهر ابن عبدالرحمن الشيخ الكبير أبوبكر الجرجانى النحوىُّ المتكلم على مذهب الأشعرى ، الفقيهُ على مذهب الشافعى ، أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى ،[3] وصار الإمامَ المشهورَ المقصودَ من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والوَرَع والسكون .

---

(١) « دول الإسلام » للذهبى ، طبعة الهند

(٢) نشرها محمود محمد الطناحى وعبدالفتاح الحلو ، وترجمته رقم : ٤٦٧ ، ج ٥ : ١٤٩ .

(٣) كان فيما نشره الشيخ رشيد : « محمد بن الحسن » ، وهو خطأ ، والصواب : « محمد ابن الحسين بن محمد بن عبدالوارث » ، وترجمته فى إنباه الرواة ١ : ١١٦

«قال السِّلَفِيّ : كان ورعًا قانعًا ، دخل عليه لصٌّ وهو فى الصلاة ، فأخذ ما وجد وعبدالقاهر ينظر و لم يقطع صلاته» .

ثم قال السبكى : ومن مصنفاته «كتاب المغنى على شرح الإيضاح» فى نحو ثلاثين مجلداً ، و«كتاب المقتصد[1] فى شرح الإيضاح» أيضًا ، ثلاث مجلدات ، و«كتاب إعجاز القرآن الصغير» ، و«العوامل المائة» و«المفتاح» و«شرح الفاتحة» و« العُمْدة فى التصريف» ، وكتاب «الجمل» المختصر المشهور .

وفى كتاب «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» نحو من ذلك ،[2] وزاد فى ذكر المصنفات «شرح كتاب الجمل» . وذكر أن علىّ بن أبى زيد الفصيحى أخذ عنه .

وذكروا له شعراً : فمنه ما أورده ابن شاكر الكتبى فى «فوات الوفيات» :[3]

لا تأمن النَفْثَةَ من شاعرٍ   مادام حَيًّا سالماً ناطقَا
فإنّ مَنْ يَمْدَحُكُمْ كاذبًا   يُحْسِنُ أن يهجُوَكُمْ صادقَا

واتَّفقوا على أنه توفى سنة ٤٧١ ، وقال السبكى : وقيل ٤٧٤ ، رحمه الله تعالى

محمد رشيد رضا
منشىء مجلة (المنار)

* * *

---

(١) كان فيما كتبه الشيخ : « المقصد » ، وهو خطأ ، وقد طبع الكتاب فى بغداد فى جُزأين سنة ١٩٨٢

(٢) فى وفيات سنة ٤٧١هـ

(٣) فى ترجمته فى « فوات الوفيات »

ورحم الله الشيخ رشيد رضا .

فقد كنتُ فى صدر شَبابى ، وفى إبّان طَلَبى العلمَ ، حين قرأتُ مقدمة الشيخ رشيد لأسرار البلاغة ، ورأيت ما فيها من الغَمْز فى عمل السكّاكىّ ، ثم الطعنِ الشديد فى كتب السعد التفتازانى وحواشيه على « تلخيص المفتاح ، للخطيب القزوينى ، حتى سماها «الرسومَ الميِّتة التى سمّاها الجهلُ علماً» ، أو كما قال = فراعنى يومئذٍ ما يقوله الشيخ فى السعد التفتازانى ، الذى أثنى عليه كلُّ من ترجم له،حتى قالوا : «انتهت إليه علوم البلاغة فى المشرق» ، ولكنِّى حملتُ ذلك على أنّه أراد الرَّواجَ لكتابه الذى طبعه ، وهو «أسرار البلاغة» للإمام الجرجانى ، وظننتُ أنها زلَّةٌ تُغْتَفرُ للشيخ رحمه الله .

ومع ذلك ، فقد دعانى ما كتبه عن كُتُب « السعد » أن أنظُر فيها وأقرأها ، فوجدتُ أنّه قد ظلم « السعدَ » ظُلْماً بيِّناً ، لأنَّ الرجُل كان يكتُب لأهل زمانه ، وما ألِفوا من العبارة عن علمهم ، وأنّ فيه من النّظَر الدقيق فى البلاغة ، قدرًا لايستهينُ به أحدٌ يحمل فى نفسه قدْرًا من الإنصاف .

* * *

ومضت سِنُون ، حتى دخلتُ الجامعة ، وسمعت ما يقوله الدكتور طه فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى رجَّ حياتى رجًّا شديدًا زلزلَ نفسى ، فعزمتُ على أن أعيد النظر فى كُتب السَّلَف المتقدمين ، ويومئذٍ عَرفتُ «كتاب التلخيص فى علوم البلاغة» ، الذى شرحه الأستاذ الجليل «عبدالرحمن البرقوقى» ، فرأيته فى مقدمته ، يغمزُ فى عمل السكاكىّ ، ثم يقولُ أيضًا فى الحواشى على « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى مثل ما قال الشيخ رشيد ، يقول البرقوقى :

«ظهر حوالّى ذلك قومٌ درجوا من عُشِّ الفلسفة ، فوضعوا على الكتاب الشروح والحواشى ، وسلكوا بهذا العلم مَسْلكاً تنكره اللغة ويستهجنُه

البلغاء ، فأغمضوا عن أسرار البلاغة ، وتشبّثوا بالفلسفة ، وحمى بينهم وطيس المناظرة ، حتى أتَوْا على الذَّمَاء الباقى من هذا العلم ، وحتى أضحى وقد انهالت دعائمه ، وتنكّرت معالمه :

كأنْ لم يكُنْ بينَ الحجونِ إلى الصَّفَا
أنيسٌ ، ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ

ثم يذكر الشيخَ محمد عبده وفَضْلَه ، ويقول : « أتى على ذلك حين من الدهر ... حتى أتيح له فى هذا العصر إمامٌ تولّى الله تأديبه ... وأوحَى إليه صالحَ العلم ، وأيّدَهُ بآيات الحقِّ . إمامٌ أرسله الله رحمةً للّغة والدين .... يَسُوق للناسِ الرشدَ فى نوابغ الكَلِم ... فلا يلبث أن يُقَوّمَ أوَد المائل ، ويجتثَّ من النفوس جُذورَ الباطِل .... فما هُوَ إلاّ أن سَطَع فينا نورُ هذين الكوكبين = (يعنى كتاب أسرار البلاغة ، وكتاب دلائل الإعجاز) = حتى استبان لنا سُوءُ ما كُنّا نعتسف فيه ، ورحمنا أنفسًا أنْصبْنَاها فى غير طائل ، ومطايا من العُمر أنضَيناها فى سبيل الباطل ... » .(١)

* * *

قرأتُ هذا وأنا فى حَوْمةِ الصِّراع التى نَشِبَتْ فى نفسى ، بما أحدثه كلام الدكتور بكتابه (فى الشعر الجاهلى) وما سمعتُه منه يومئذ ، فلم أزل أسائل نفسى وأسائل الكبار الذين أدركوا ذلك الزمان قبل أن أُولَد ، فعلمت منهم أنّ ما قاله الشيخان إنما هو ترديدٌ لما كان يقوله الشيخ محمد عبده فى دروسِه ومجالسه ، فى ذمِّ الكتب التى كان طلبة العلم فى الأزهر يدرسونها ، فتلقَّفوا عنه هذا الطعْنَ بالتسليم دون فَحْصٍ أو نَظَرٍ . وهذه الخَصْلَةُ وحدها ليست من خِصالِ أهلِ العلم ، إنما هى تشدُّقٌ وثرثرة ، كُلُّ امرىءٍ قادرٌ على أن يتبجّح بها ويتباهَى ، وقبل كلِّ شيءٍ ، فهى فى حقيقتها ضِدٌّ صريحٌ

---

(١) اختصارٌ لثرثرة طويلة من مقدمة الشيخ البرقوقى

عن هذه الكُتُب ، يُورثُ الازدراءَ ، ويُغْرى بالانصرافِ عمّا فيها ، ويحمِلُ على تحقير أصحابها .

وفُتح هذا الباب و لم يُغْلَق إلى هذا اليومِ

* * *

كان هذا وَمْضَة بَرْقٍ فى ظلامٍ لفَّنى فيه كلامُ الدكتور طه . فشغلتُ نفْسى فترة فى الأمرِ كيف جاء على لسان هذين الشيخين ؟ و لم ؟ وكنت يومئذ حديث التخرُّج فى القسم العلمى فى المدرسة الخديوية . فنظرت فيه على هذا الوجه :

أولاً = الشيخ محمد عبده ولد سنة ١٢٦٦هـ، وتوفى سنة ١٣٢٣هـ، (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) ، ولمّا كان مناصرًا لثورة عرابى ، سجنه الإنجليز ثم نَفَوْه وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره إلى بيروت سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وبعدَ ذلك عاد إلى مصر سنة ١٣٠٦هـ(١٨٨٨م) ، ويومئذٍ ذاع صيتُه وتحلَّق الناس حوله . وبعدئذ أيضًا نَشِب الخلاف بينه وبين علماء الأزهر واحتدم ، وتطايرت الكلمات على لسانه فى ذمِّهم وذمّ كتبهم ، وأظنُّ أن ذلك كان قد بدأ سنة ١٣٠٩هـ(١٨٩١م) على الأقل ، إلى أن توفى رحمه الله فى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ، أى نحو أربع عشرة سنة .

ثانياً = الشيخ محمد رشيد رضَا ولد سنة ١٢٨٢هـ وتوفى سنة ١٣٥٤هـ (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) ، وكانت بينه وبين الشيخ عبده مراسلات قليلة أيامَ نفيه إلى بيروت ، ثم ترك الشام ونزل مصر سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، فشهد هذه المعركة بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده نحو ثمان سنواتٍ ، وسمع منه ما سمع ، وكتب مقدمة « أسرار البلاغة » ، سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) ، أى بعد مَقْدمه إلى مصر بخمس سنوات .

ثالثاً = الشيخ عبدالرحمن البرقوقى ، ولد سنة ١٢٩٣هـ وتوفى سنة ١٣٦٣هـ (١٨٧٦ - ١٩٤٤م) ، قرأ فى الأزهر على شيخنا سيد بن على المرصفى ، ولم يتمَّ دراسته فى الأزهر ، وكان حين نشبت المعركة بين الشيخ عبده وعلماء الأزهر فى السادسة عشرة من عمره ، شابًّا نابهًا محبًّا للآداب ، وكان ممن تحلَّق حول الشيخ عبده من طلبة الأزهر . فسمع ما سمع من الشيخ حتى توفى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ، وكان يومئذ فى الثلاثين من عمره . وفى سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) ، طبع كتابه «شرح التلخيص فى علوم البلاغة ، وقرَّظه الشيخ عبده فى تلك السنة ، ثم توفى الشيخ سنة ١٣٢٣هـ كما مرَّ آنفًا ، وضمَّن التقريظ غمزًا شديدًا فى شُرّاح « التلخيص » ، وفيمن يدرِّسه من علماء الأزهر فقال :

« شرحه كثير من الناظرين فى الفنّ ، وتعلَّق الأغلبُ بلفظه ، ولم ينظروا فى الغاية من وضعه ، فصرفوا الوقت فيه ، وفاتهم البلاغة نفسها بجميع مقاصدها . فلا هم يُحْسِنُون إذا كتبوا ، ولا هم يُقْنِعُون إذا خطبوا ، ولاهم يحسنون الاستماع إذا خوطبوا ، كما هو معروف لأنفسهم ، ولكل من يَعرفهم».

* * *

فأنت ترى ، فيما أظنّ ، أن ما قاله الشيخان ما هو إلا ترديدٌ لما كان يقوله الشيخ عبده فى معركته مع الأزهر ، فى ذمّ كتبهم والغضّ منها ، والكلام المكتوب = كما تراه فى تقريظ «شرح التلخيص» للبرقوقى = غير الكلام الذى كان يدورُ فى المعركة باللسان ، وبالتجريح ، وبالانتقاص ، والصدّ عن شروح «التلخيص» ، وبخاصة حواشى «السعد التفتازانى» الذى انتهت إليه معرفة علوم البلاغة فى المشرق . كما قال مترجموه ، وأحسنوا الثناء عليه وعلى ما كتب ،

[انظر مقدمة الشيخ رشيد فيما سلف ، والتعليق عليها]

ولم يقتصر ذمُّ الشيخ عبده على كتبِ البلاغة وحدها ، بل تناول الطعنُ الجارحُ كلَّ الكتب التى كانت تدرس فى الأزهر على اختلاف أنواعها ، من بلاغة وفقه ونحوٍ وبقية علوم العربية والدين ، وذاعَ هذا الطعنُ ، وتناقلتْهُ ألسنة المحيطين به من صغار طلبة الأزهر ، وطلبة المدارس ، وغيرهم من الطوائف ، فكانَ هذا أوّلَ صَدْعٍ فى تُراثِ الأمَّة العربيَّة الإسلامية ، وأوّل دَعْوة لإسقاط تاريخ طويل من التأليفِ ، وما كتبه علماءُ الأمّة المتأخِّرون ، إسقاطاً كاملاً يتداوله الشبابُ بألسنتهم ، مستقرًّا فى نفوسهم وهم فى غضَارة الشبابِ ، لايُطيقون التمييز بين الخطأ والصواب ، وليس عندهم من العلم مايُعينُهم على الفصل فى المعركة التى دارت بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده ، وليس فى أيديهم سوى ما قاله الشيخ فى التجريح والطَّعنِ الذى صَدَّهم صدًّا كاملاً أيضاً عن هذه الكتب ، وأورثهم الاستهانة بهَا — والاستهانةُ داءٌ وبيلٌ يطْمِسُ الطرقَ المؤدِّية إلى العلِم والفهم .

كلماتٌ جارحةٌ ، وزلاّت لسانٍ على حين غَضبٍ ، لا يدرى الناطق بها ما عواقبها ، وقد قال الشاعر القديم :

جراحَاتُ السِّنانِ لها التئامٌ ولايلتامُ ما جَرحَ اللسَانُ

(يلتام : يلتئم) ، وقد كانَ ما قال الشاعر ، وبقى الجرحُ يَتَّسِعُ وينزِفُ إلى هذا اليوم .

* * *

لم تَكَدْ هذه الجراحاتُ تستشرى قليلاً قليلاً ، حتى جاءَ ما هو أدْهى وأعظمُ بلاءً . جاء من رجُلٍ نشأ فى الأزهر ، بعد أن جاء من الصعيد سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) فى الثالثة عشرة من عمره ، وذلك قبل وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م)، فلم يسمع منه شيئاً ، بل سَمِع

ما كانت تتناقله الألسنة الطاعنة فى كُتُب الأزهر باستهانة وبلا مبالاة ، فَوقَرَت الاستهانة فى أعماق نفسه . ولم تستمر دراسته فى الأزهر أكثر من أربع سنوات ، ثم فارق الأزهر قبل سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ، فالتحق بالجامعة المصرية التى كانت قد أنشئت فى هذه السنة . كان فتى ذكيًّا أديباً محبًّا للظهور والشهرة ، فنال الدكتوراه من «الجامعة المصرية» سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، ثم سافر إلى فرنسا وحاز الدكتوراه من السربون سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) ، وعاد إلى مصر وأقام بها حتى أنشئت « جامعة فؤاد الأول » (جامعة القاهرة) ، فعُين بها أستاذاً للأدب العربىّ سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) ، وذلك عند أول إنشاءِ هذه الجامعة ، وهو يومئذ فى السادسة والثلاثين من عمره = ذلك هو أستاذنا وأستاذ جيلنا الدكتور طه حسين .

* * *

كنّا طلبةً صغارًا ، قد جاءوا من المدارس الثانوية ، مُفَرَّغين تفريغاً كاملاً من أصول ثقافة أمتهم ، من ماضيهم كلِّه ، من علومه وآدابه وتاريخه وفنونه ، ومن الثقافة الإسلامية العربية الواضحة فى كتب أسلافهم ، لا علمَ لأحدٍ منهم بهذه الكُتب . وذلك بفضل نظام المدارس المصرية الذى تولّى وضعه القسيس المبشر العاتى « دنلوب » ، والذى لايزال سارىَ المفعول إلى هذا اليوم ، (سنة ١٩٩١م) .

فُوجئنا جميعًا بالدكتور طه ، وبصوته الجهير ، وبألفاظه العذبة ، وبحسن تعبيره عن مقاصده ، ثم بإنكاره صحةَ الشعر الجاهلىّ ، والذى لم يسمع به أكثرنا ، بل جُلُّنا ، وهو يحدثنا عن نظريته فيه ، وأن : « الكثرة المطلقة مما نسمِّيه شعراً جاهليًّا ليست من الجاهلية فى شىء ، فهى مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلاميةٌ تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكادُ لا أشكُّ فى أن مابقى من الشعر الجاهلى

الصحيح قليلٌ جدًّا ، لايمثل شيئًا ولايدلّ على شيء ، ولاينبغي الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى . وأنا أقدّر النتائج الخطيرة لهذه النظرية ، ولكنى مع ذلك لا أتردّدُ فى إثباتها وإذاعتها ، ولا أضْعُف عن أن أعلن إليك ، وإلى غيرك من القراء ، أنَّ ما تقرؤه على أنه شعر امرىء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس فى شىء ، وإنما هو انتحال الرواة ، أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاةِ ، أو تكلف القُصّاص ، أو اختراع المفسّرين والمحدِّثين والمتكلمين» (فى الشعر الجاهلى : ٧)

وانتهى بنا الدكتور طه إلى قوله : « نحن مطمئنون إلى مذهبنا ، مقتنعون بأن الشعرَ الجاهلى ، أو كثرة هذا الشعر الجاهلى ، لا تمثّل شيئاً ولا تدل على شيءٍ ، إلاّ ما قدَّمنا من العبث والكذب والانتحال ...» ، (فى الشعر الجاهلى : ١٨٣) . وأعِدْ قراءة هذا لكى تحسَّ بما فيه من الزهو والغرور .

وأنا وحدى ، من بين جميع زملائى ، تجرَّعْتُ الغيظَ بحْتًا ، ووقعت فى ظلام يُفضى إلى ظلام ، وفى حَيْرةٍ تجرُّنى إلى حيرةٍ . وهالنى هذا الطعنُ الجازمُ فى علماء أمتى ، وفى رُواتها ، وفى نُحاتها ، وفى مفسّرى القرآن ، ورواة الحديث . وبقيتُ أتلدّدُ يمينًا وشمالاً زمنًا متطاولاً ، حتى جاءت وَمْضَة البرقِ التى أضاءت لى الطريق ، (انظر ما سلف : ١٩) ، وحملتنى على أن أتقصَّى قضية طعنِ الشيخ عبده وتلاميذِه فى كُتب العلم التى تدرّس فى الأزهر ، كما أسلفت آنفًا . فأيقنتُ أن الذى هوّن على الدكتور طه أن يأتى بنظريته فى الطعن فى الشعر الجاهلى وفى علماء الأمة ، هو ما تأثر به من سماع ما تناقلته ألسنة المحيطين بالشيخ عبده من الطعن فى كتب البلاغة وعلمائها الكبار باستهانة وبلا مبالاة ، فوقرت هذه الاستهانة فى أعماق قلبه ، ونَضَحت نَضْحَها فى كل صفحة من صفحات كتابه : «فى الشعر الجاهلى» .

ولم تمض عشرُ سنوات ، أى فى سنة ١٩٣٥ ، حتى كان الدكتور طه أوّل من فزع من أثر هذه النظرية فى أبنائه الذين خَرَّجهم فى الجامعة ، فبدأ ينشر فى جريدة الجهاد سنة ١٩٣٦ مقالات كان محصَّلها أنه قد رَجَع رجوعًا كاملاً عن نظريته فى الشعر الجاهلى ، ثم حدّثنى هو نفسه بأنّه قد رجع عن هذه الأقوال ، ولكنه على عادة الأساتذة الكبار فى ذلك الوقت ، يخطئون فى العَلَن ، ويتبرأونَ من خطئهم فى السرّ . وسقطت نظرية الشعر الجاهلى وحُسِم أمرُها ، ولكنّ الاستهانة ظلّت ساريةَ الأثر ، إلى هذا اليوم .

بل بقى من كتابه فى الشعر الجاهلى ، مذهبُه الذى دافع عنه فى أول كتابه ، والذى وصفه بقوله : « أما هذا المذهب (يعنى الشك) ، فيقلب العلم القديم رأسًا على عقب ، وأخشى إن لم يَمْحُ أكثره ، أن يمحوَ منه شيئًا كثيراً» ، (فى الشعر الجاهلىّ : ٣) ، وأن هذا المذهب له نتائج عظيمة جليلة الخطر ، وأنه أقربُ إلى الثورة ، وحَسْبُك من أصحابه : « أنهم يشكون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنّه حقٌّ لاشكَّ فيه ، وليس حظُّ هذا المذهب منتهيًا عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه إلى حدود أخرى أبعد منه مَدًى وأعظم أثرًا . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناسُ على أنه تاريخ » ، (فى الشعر الجاهلى : ٦) ، وهذا كُلُّه ثرثرةٌ جارفةٌ ، واستطالة وزهوٌ وطقطقة لسان ، لاغيرُ .

* * *

ذهبت نظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلىّ بَدَداً ، لأنَّها لم تقم على أساسٍ صحيح من العلم والنظر ، ولم يبق من كتابه إلاَّ شيئان :

الأول : ما طفحَ به كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، من الاستهزاءِ والسخرية والاستهانة بعقول القدماءِ من أسلافنا ، والحطّ من أقدارهم ، والغَضّ ممّا خلَّفوه من كُتُبٍ ومن علمٍ ، ومن حصيلة جُهودهم وإخلاصهم

فى التثبُّت من المعرفة . وهذا كُلّه مُفْضٍ إلى طَرْح هذا الذى تركوه لنا وراء ظهورنا ، وإلى الإعْراض عنه بلا تبيُّنٍ ولا نَظرٍ . وهذا هو الداء الوبيل .

الثانى : التحريض السافر ، لشبابٍ مفرَّغين من أصول ثقافتهم الممتدِّ تاريخُها على مَدَى ثلاثة عشر قرنًا ، على العَبثِ بهذه الأصولِ ، والكذب عليها بحصائد الألسنة التى لاتستمدُّ بيانَها من عقل مستنيرٍ يتورَّع عن الخوضِ فى أمورٍ لايعرفها حقَّ المعرفة . وهذا أيضًا داءٌ وبيلٌ آخرُ يُسْرع إسراعَ النار فى هشيمِ النبتِ .

وقد اكتسب الدكتور طه «الاستهانة» والاستخفاف مما سمعه من حديث جرى على الألسنة فى زمان المعركة بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده وتلامذته من بعده . وأما «التحريض» على تغيير التاريخ ، وما اتّفق الناسُ على أنه تاريخ ، ثم ما دعا إليه من مذهبٍ يؤدى إلى أن ينقلب العلم القديم رأسًا على عقب ، وأن يُمْحَى من هذا العلم القديم أكثره ، أو أن يمحى منه شيءٌ كثير = فهذا هو تجديد الدكتور طه الذى دعانا نحن الصغارَ إليه .

ومرة أخرى أقول :

جِرَاحات السِّنانِ لَها التِئَامٌ ولايَلْتَامُ ما جَرَحَ اللسانُ

* * *

إنما قصصْتُ هذا التاريخ الطويل ، لأنه تاريخٌ لداء «الاستهانة وقلّة المبالاة» ، الذى سَرَى فى الناس ، ولأنه يكشف لنا بوضوح أسبابَ فسادِ حياتنا الأدبية التى نعيشها اليوم . وهى حياةٌ فاسدة ، لأن أساتذتنا الكبارَ استهانوا بما يقولون ، وتركوا ألسنتهم تطولُ وترعى فى مَرْتع وخيم . واستهانتهم هذه لم تقتصر جنايتُها على العلم أو الأدب ، أو التاريخ ، أو الدين ، بل جَنت أيضًا على الحياة السياسية التى جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، بل استشرت أيضاً حتّى جنت على ما هو أعظم ، جنت على

عامة الناس فى حياتهم اليومية ، وأعمالهم التى يزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكسبُوا بها رِزْق أيّامهم ، وقُوتَ أنفسهم وقُوتَ عيالهم . كانت الاستهانةُ شرارةً خفيّة تحت الرَّماد ، وإذا بها اليومَ نارٌ ساطعةٌ يستطير لهيبُها يميناً وشمالاً ، وصدق الشاعر الذى يقول :

* ومُعْظَم النَّار من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ *

* * *

آه ! لقد مضى على الأمة العربية الإسلامية نحوٌ من ثلاثة عشر قرنًا ، لم نسمع فى خلالها دعوةً تحرِّضُ طلبة العلم على إسقاط كُتُبٍ برُمَّتها من حسابهم ، وتحثُّهم على رفضها وتركِ النظرِ فيها . ولذلك قلتُ آنفًا : إن الذى جرى على لسان الشيخ محمد عبده (فى أوائل القرن الرابع عشر) فى حركته مع شيوخ الأزهر ، طلبًا لإصلاح التعليم فى الأزهر ، كانَ أوْلَ صَدْع فى تُراث الأمة العربية الإسلامية . ثم تلقَّف كلامَهُ تلامذتُه فردّدوه ترديدًا متواصلاً ، وجاء ذلك بيِّنًا فيما كتبه الشيخ رشيد رضا والشيخ البرقوقى فى شأن الكتب التى كانت تدرّس فى الأزهر فى علم البلاغة ، كالحواشى التى كتبها إمام عصره فى البلاغة ، السعد التفتازانى فى أواخر القرن الثامن (٧١٢ - ٧٩١هـ) ، على «تلخيص المفتاح للسكاكى» للخطيب القزوينى من أئمة علماء البلاغة فى أوائل القرن الثامن (٦٦٦ - ٧٣٩هـ) . وكان ما قالوه جميعًا ، كما رأيتَ ، يحملُ قدرًا بالغ الشناعة من « الاستهانة » بعقول الماضين من العلماء وأقدارهم . وليت شعرى ، ما يقولون إذن فى «عروس الأفراح ، شرح تلخيص المفتاح» للبهاء السبكى (٧١٩ - ٧٩٣) ، وفى ابن يعقوب المغربى فى « مواهب الفتاح ، فى شرح تلخيص المفتاح » (...) ، وفى حاشية الدسوقى على شرح السعد (... - ١٢٣٠هـ) !!

لقد كانت هذه الكتب جميعًا مُنْذ السكاكىّ إلى الدسوقى ، تقعيدًا

لبعض ما كتبه عبدالقاهر فى كتابيه فى البلاغة ، فهو أوّل من أسَّس علم البلاغة تأسيسًا بالغ الدقة ، ومَنْ طلب البلاغة منهما وَحْدهما ، فقد وقع فى بحر تتلاطم أمواجُه ، راكبُه على غَرَر الغرق . والذى يضمنُ لراكبه النجاة هم الذين قعَّدوا قواعدَ علم البلاغة ، وكتبوا الكتبَ والحواشىَ وضمنوها دررًا لايُعْرِض عنها إلاّ جاهل ، ولايذمُّها ويحثُّ الناس على الإعراض عنها ، إلاّ من استهان بالعلم وبالعلماء ، ولايُحَصّل طالب العلم من ذمِّهم إلاّ «الاستهانة» دون العلم .

وكتابا عبدالقاهر : « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ، أصْلان جليلان فى البلاغة ، لم يسبقهما سابقٌ ممن كتب فى البلاغة ، وهما ككتاب « سيبويه » بل أشدُّ صعوبة ، فمن أرادَ اليوم أن يردّ الناسَ عن كتُب المبرد ومَنْ بعدهُ إلى ابن عقيل ، إلى ابن هشامٍ إلى الأشمونى ، ويحثُّهم على استمدادِ النحو من « سيبويه » وحدَه ، فقد أغراهم بأن يلقوا بأنفسهم فى بحرٍ لجّىّ لايَرَى راكبُه شاطئاً يأوى إليه ، وما هو إلاّ الغَرق لاغير . كتابُ « سيبويه » لايعلِّم طالبَ العلمِ النحوَ ، إلاّ إذا مَهَّد له الطريقَ ابنُ عقيل وابن هشام والأشمونى ، وإلاّ فقد قَذَف نفسه فى المهالك .

كُلُّ من دعا طُلاَّب العلم إلى الإعراضِ عن الكتُب التى قَعَّدت القواعد ، ومَحَّصت الكتبَ التى تُعدُّ أصْلاً فى علمٍ لم يسبقْهُم إلى مثله سابقٌ ، كسيبويه وعبدالقاهر ، وحثَّهم على الرجوع إلى الأُصل وحدَه ، دون استعانة بمن قعَّدوا قوَاعد هذا العلم ،وقتلوه بحثًا وتنقيبًا ، فقد استهانَ بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص وَورَع جيلاً بعد جيل ، وعَوَّد طلبةَ العلم أن يستهينوا ويستخفُّوا بالعلم نفسه ، وهذا هو البلاءُ الماحقُ لكلّ فضيلةٍ فى طالب العلم ، ويخرجه من حيِّز التواضع فى طلب العلم ، إلى حيِّز الغُرور والتبجُّح والاستطالة بعلمٍ ليسوا منه فى قَبيلٍ ولا دَبيرٍ .

* * *

لم تمضِ عشرون سنة عَلَى ما ردّده الشيخ رشيد والشيخ البرقوقى من الاستهانة بالعلماء المتأخرين وكتبهم ، حتى جاء الدكتور طه حاملاً كلّ الاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملةً واحدة ، وحثّ طلبة صغارًا فى الجامعة على أن يأخذوا بمذهبِه الجديد ، الذى « يقلب العلم القديم رأسًا على عَقِب» ، والذى « يخشى إن لم يمحُ أكثره ، أن يمحوَ شيئاً كثيراً منه » و« أن يشكُّوا فيما كان الناسُ يرونه يقينًا ، وأن يجحدوا ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لاشك فيه ، لا بل أن يجاوزوا هذا الحدّ إلى حدود أخرى أبعدَ منه مدًى وأعظم أثراً ، فهم قد ينتهون بهذا المذهب إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناسُ على أنه تاريخ » (فى الشعر الجاهلى ص : ٦)

وقد كان ما دعا إليه الدكتور طه وأكثر منه ، وفعلت « الاستهانة » فعلها المتمادِى فى الأجيال الناشئة على يديه ، كما نشأ هو على يدى الشيخ رشيد والبرقوقى ، وإذا بنا نرى اليوم أساتذةً ، لايقفون بجرأتهم على السكاكى والسعد التفتازانى ، بل يتعدَّون هذا إلى منشىء علم البلاغة نفسِه ، فيعلِّمون اليوم طلبتهم الصغار أن بلاغة عبدالقاهر ما هى إلا عجوزٌ شمطاء ، أو أن الذى يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة ، هو كالمريض الذى يلجأ إلى حلاّق القرية ليداويه ، مُعرضًا عن الطبيب الممارس المؤهّل لعلاج المَرضى !! ورحم الله الشيخ رشيد والشيخ البرقوقى ، فهذا جزاءُ ما حمله كلامهما من « الاستهانة » بأقدار العلماء وكتبهم .

بل كانت ثمرة «الاستهانة» أن يقف أستاذٌ فى أيامنا هذه يعلّم النحو ، ويقول للطلبة الصغارِ ، مزهوًّا بعلمه : كنتُ أحبُّ أن يجلس سيبويه بينكم ليتعلم منى النحو !! وأساتذة آخرون يقولون للصِّغار من الطلبة : إنما أفسد نحوَ العربية سيبويه وابن عقيل وابن هشام وأضرابهم بما كتبوا وبما ألّفوا !!

ويقول أساتذة آخرون : إن الذى أفسد « موسيقى الشعر العربى » ، هو الخليل بن أحمد ومن جاءَ بعده من علماء « العروض » !!

بل بلغت «الاستهانة» مبلغها فى الدين ، بعدما نشأ ما يسمُّونه بالجماعات الإسلامية ، فيتكلم متكلمهم فى القرآن وفى الحديث بألفاظٍ حفظها عن شيوخه ، لايدرى ما هى ، ولايردّ ، بل يكذّب ، أحاديث البخارى ومسلم بأنها من أحاديث الآحاد ، بجرأةٍ وغطرسة !!

بل جاء بعدهم أطفال الجماعات الإسلامية ، فيقول فى القرآن والحديث والفقه بما شاء هو ، ويرُدّ ما قاله مالك وأبوحنيفة والشافعى وابن حنبل ، ويقول : نحن رجالٌ وهم رجال !! بل تعدَّى ذلك إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ نفسه ، فيقول : نحن رجالٌ وهم رجال

أىُّ بلاء حَدَث فى زماننا هذا ؟ إنما هو وباءُ « الاستهانة » بكلِّ شىء . وباءٌ تفشى فى مصر بل تجاوزها ، ورحم الله أبا العلاء المعرِّى ، وذكر وباءً نزل بمصر وغيرها فقال :

ماخَصَّ مِصْرًا وَبَأٌ وَحْدَها　　　بل كائنٌ فى كُلِّ أرضٍ وَبَأْ

(وَبَأْ بالقصر ، هو الوباء بالمدّ)

انطفأ سِرَاجُ العلْم ، وسِرَاجُ الخُلُق ، وبقيت العقول فى ظلماتٍ بعضُها فوق بعض . أىُّ نكبةٍ نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية ، على يد الصِّغارِ فى حقيقتهم ، الكبارِ فى مراتبهم التى أنزلتهم إيّاها تصاريف الزمان ، فأطلقوا ألسنتهم فى مواريث أربعة عشر قرنًا بالاستهانة والقدح والازدراء ، وغفر الله للشريف الرضى حيث قال دفاعًا عن نفسه ، والدفاعُ عن علم أمّتنا أولى بما قال :

وإنّ مَقامَ مِثْلِىَ فى الأعَادِى　　　مَقَامُ البَدْرِ تَنْبَحُه الكِلابُ
رَمَونِى بالعُيُوبِ ملفَّقاتٍ　　　وقد علموا بأنِّى لا أُعابُ
ولمَّا لم يُلاقوا فىَّ عَيْبًا　　　كَسَوْنى من عُيُوبهمُ وعابُوا

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، وهو بعباده لطيفٌ خبيرٌ ، وهو القادِرُ

على أن يَرُدَّ من زاغَ عن الطريق إلى الجادَّة ، وأن يُعِيذَه من شرور نفسه وفلتاتِ لسانه .

نَفْثَةُ مصْدور ، ولابُدَّ للمصدور أن ينفِثَ ، (المصدور : الذى يشتكى وجعًا فى صدره)

* * *

بقى بعد هذا الحديث الجالب للغمّ ، أن أحدّثك عن أمرٍ واحدٍ فى شأن كتاب الإمام عبدالقاهر « أسرارِ البلاغة »

فإنى حين انتهيت إلى عمل فهرس الكتاب وقعتُ فى حيرةٍ ، وجدتُ أنى لا أستطيع أن أضبط ما فى الكتاب تحت أبواب جامعة ، لأن تفاصيل ما فيه كانت أوسع من أن تجمعها أبوابٌ محدّدة كسائر كتب البلاغة التى جاءت من بعده . فانتهيت أخيرًا إلى أن أجعل الفهرسَ مفصَّلاً تفصيلاً كاملاً بألفاظ الإمام نفسه . فتحت كُلِّ فقرةٍ دُرَرٌ نفيسةٌ تضيع إذا عقدتُ له أبواباً جامعة . فرأيتُ أن أجعلها مفصَّلةً ، لكى يستطيع قارىء الكتاب أن يعرف خَبْأَه ، راجيًا أن لايتفلَّتَ منه شىء بالاختصار . وهذا مُعينٌ لطالب العلم الجادّ فى عمله ، أنْ يستخرجَ منه مافات علماء البلاغة الذين قعَّدوا قواعدَ هذا العلم ، جزاهم الله أحسن الجزاء

ربِّ اغفر لى وارحمنى وتبْ علىَّ إنك أنت التواب الرحيم .

مصر الجديدة

٣ شارع الشيخ حسين المرصفى

السبت : ١٦ جمادى الأولى سنة ١٤١٢هـ

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٩١م

أبوفهر
محمود محمد شاكر